من أقاصيص الجاهلية

حرب البسوس

بقلم اليوزباشي أحمد الطاهر

ـ « ما عهدتك تمضي ليلتك في السامر ياجساس ، أكان حديث القوم عذباً فالقيت إليه السمع ، أم كان لسانك ذرباً فدفعت عن بكر ؟ »

ـ « نعم ياخالتاه . لقد دفعت عن بكر بلسان صدق في السامرين ، ودفعت هـذه الغرية التي يسدها كليب لنا في كل مجمع وناد ، ولم أنس يا خالتي أن أدفع عنك مقالة السوء التي نالك بها كليب ، فقلت للقوم : إنكم تعلمون موضع البسوس من أهلها وتعلمون موضع أهلها من العرب . ومن كانت في هذا الشرف من القوم فما أبعدها عن السعاية والوقيعة . وما نقموا من البسوس ياقوم إلا ما اشتهرت به من حماية الجار ، وحفظ الذمار ؛ وهي بعد ليست ثرّة [1] ولا نمّة . واندفعت ياخالتاه أقرع حجج كليب حجة بعد حجة : وأرد فريانه فرية بعد فرية ، فاذا القوم على كليب ساخطون ، وعلى بكر وبني شيبان عاطفون . »

هشت البسوس بنت المنقذ التميمي لمقالة جساس ابن أختها ، وضمته إلى صدرها وقبلته في مفرقه . واستوت تقص عليه ماسمعت من نساء الحي . ولم يكن للحي من حديث في سامرهم وناديهم ومجمعهم إلا مابين بكر وتغلب من إحن وحفائظ أخذت البسوس على نفسها عهداً باذاعتها في القوم وإفشائها في غير قصد ولا أناة . قالت : « هذا كليب بن ربيعة التغلبي قد أخذته العزة بالاثم وبغى على قومه لما دانوا به من الطاعة له والانقياد لسلطانه ، حتى بلغ من بغيه أن يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه ، ويجير على الدهر فلا تخفر ذمته ، ويحمي الوحش في مسارحه فلا يهاج ، ولا تورد إبل مع إبله ، ولا توقد نار مع ناره . ولقد أخذت الناس رعدة من قوته وسلطانه . وضربوا الأمثال بعزته وطغيانه ، وما بعث هذا البغي وهذا الطغيان إلا النصر الذي أحرزه يوم تحزازى حين قاد معداً ففض جموع اليمن . وما النصر يحرزه القائد إلا الفضل الذي أفاضه عليه الجنود ، بالتفافهم حول لوائه واندفاعهم على العدو . فما كان القائد ليحرز نصراً لو تخلى عنه الجنود . ولكن قد يحرز الجند نصراً وقد ولى عنهم القائد . على أنه يا ابن أخت ، لوكان فيه ذمامة من حياء ، أو بقية من وفاء ، لما تعاظم على قوم رفعه ، ولا تكاثر على شعب رفده . ولو كان ممن يرعون العهد ويحفظون الذمار لرعى عهد النسب وحرمة القربى ، ولرعى الصلة الوشيجة ، والخاصة الوليجة . أليست زوجه جليلة وهي أختك ؟ إن أعجب ياجساس فما أعجب إلا لصبر هذه الكاع عليه ، وسكوتها على بغيه ، وهي زوجه أولى الناس بتقويمه إذا اعوج ، وتليينه إذا صلب ، وسياسته إذا شط ؛ وهي أولى الناس بالمدافعة عن أخيها وعن خالتها ، وما ادخر كليب وسعاً في النيل من أخيها ومن خالتها . لا أبني يا جساس من قولي أن أنغل [1] بينك وبين أختك ولا بينك وبين كليب . كلا . ولا أن أبذر شقاقا بين جليلة وزوجها ، ولكني أرى من كليب بغياً واستهانة ، وأرى منك ضعفاً واستكانة ، وأرى من جليلة صمتاً المذلة وصبراً على الهوان . وكأني بك تقرها على صمتها وترضى عن صبرها . وأنت لا تقل عن كليب في طول النجاد ، ورفعة العماد ، على يفاعك وحدث سنك . »

قام جساس وقد استحصد ، وغلى الدم في رأسه وركبه الشيطان ، وأقسم ليقصمن ظهر كليب ، ولينصرن عشيرته ، ولينضحن عن بني شيبان . ثم احتواه الليل فبات يرعى النجوم ، ويستعرض الهموم ، حتى انبلج الصبح فاذا هو يسعى إلى البسوس يقص عليها ما جاش به صدره ، وما استقر عليه عزمه . قال : « ياخالتاه . لقد قدحت الذهن حتى استعر ، وعببت الرأي حتى اختمر ، وشاورت النفس فطاب لها الحمام ، وغمزت العزم فألفيته شديد المُرام ، وأنا اليوم على أن ألتمس كليباً في غرة فأنتقم لبكر وبني شيبان ، وأرفع عنهم المذلة والهوان . »

قالت : « وهل شاورت الحي فيما اعتزمت ؟ »

قال : « الرأي الخطير كالجمرة المستعرة كلما تداولتها الأيدي

(١) الثرة كثيرة الكلام والنمة النمامة

(١) أنغل بينهم أفسد ونم

فترت حرتها وانطفأت جذوتها . وما يركن ذوو الرأى إلى المشورة إلا حين تعجز هممهم عن النفاذ ، وتقعد عن النجاز ، فيلتمسون لدى الناس رأياً يتخذونه لقعودهم سبباً ، ولعجزهم علة ، وأنا إن أصحرت بالتدبير فما آمن أن ينتهى الى كليب فيعتصم ويتقى . »

وكانت البسوس قد استودعت سراً . . .

وكان ما أفضى به جساس إلى البسوس حديث القوم فى سامرهم وناديهم تتناقله بشكر وشيبان ، وذهل وقيس ، ووائل وبكر ، وغير أولئك من القبائل والبطون والأفخاذ

* * *

وفى ضحوة من النهار اجتمع عند البسوس : همّام بن مرة أخو جساس ، والفِنْد الزِّمّانى سيد بكر وفارسها وشاعرها ، وبسطام بن قيس فارس بنى شيبان ، وأبو فَيْد عمرو بن الحرث السدوسى ، والحرث بن عباد فارس النعامة وفارس ربيعة وشاعرها . وجلس جساس مطرقاً ينكت الأرض بعود فى يده والقوم ينظرون اليه وينظر اليهم فى حيرة ووجوم

قال بسطام : « ما بالك ياجساس تحبس النفس على الأذى ، وأنت فينا تنظر غنة فلا تجد إلا فارساً مغواراً ، أو أسداً كراراً ، وتنظر يسرة فلا تجد إلا بصيراً فى الرأى ، أو نصيراً فى الشدة ؟ »

قال جساس : « أعلم ذلك . وأعلم أنه لايدفع الهون ولا يرد البلاء إلا سفك الدماء » قال همام بن مرة . « إنه لكذلك . . »

قال أبو فيد : « أما الهون فقد لحق بكراً حتى أذلها ، وأما البلاء فقد وقع ماله من دافع . وأما الصبر عليه فأمر يرجع اليكم ويعود عليكم ، ولست أدرى إن كنتم لكليب وتغلب أكفاء فى القتال ، ولكنى أعلم أنكم لاتقلون عنهم فى الشرف ، ولستم دونهم فى المنزلة ، فان كنتم على هذا تصبرون ، فقد رضيتم من العيش بالدون ، وإن أحمسكم الذل وقام رجالكم للحرب يؤرِّجون [1] فانى برئ مما تفعلون »

فنهض الحرث بن عباد ، والفند الزمانى مغضبين وقدم أحدهما بأبى فيد يعصر عنقه وقالا أو قال أحدهما : « ثكلتك أمك يا رسول الوقيعة ، تحمس الرجل وتستثيره ، وتنفل بينه وبين القوم ثم تقول إنى برئ مما تفعلون ؟ لشد ما أمعنت فى الوقيعة والسعاية ، ولعمرى ما مؤرج الحرب إن قامت إلا أنت . قم لادر ضرعك »

وفر ابو فيد لايلوى على شئ

« وأنت يا جساس أصلح من شأنك ، وهون عليك بأسك ، واستشر الحكمة ، واستلهم الصواب ، ولا تبرم الرأى إلا بعد التدبير ، ولاتعقد العزم إلا بعد التفكير ؛ ولك من رعاية الله خير معين ونصير »

وانفض مجلس القوم ، ودخل جساس الى فناء البسوس واجماً مطرقاً

قالت البسوس : « هون عليك فالخطب أيسر مما ترى ، ولعل الخير فى الأناة ، قم فلقد رثأت[1] لك لبناً لعله يفثأ غضبك» قال : « مالى حاجة الى الشراب » قالت : « هو لبن احتلبته من سراب ناقة سمد وقد استودعتنيها وأحل لى حلبتها . » قال : « لا » ، ومضت البسوس الى شأنها ، ولبث جساس مطرقاً

وما هى إلا فينة حتى عادت سراب تشخب دماً . واستبانت البسوس ما بها فاذا كليب قد اشتد عليها بسهم فخرم ضرعها ؛ فنفرت وهى ترغو وعادت الى حظيرتها . وما نقم كليب منها إلا أنها تبعت إبلاً له ودخلت ترعى فى حماه

صاحت البسوس : واذلاه ! واجاراه !

وقام جساس يتبين الخبر ، فلما وقف على ما كان قال : « اسكتى ياخالة فليقتلن غدا جمل هو أعظم عقرا من ناقة جارك »

واعتقل رمحه وخرج الى الفلاة يتوقع غرة كليب . وتبعه عمرو ابن الحرث بن ذهل على فرسه ومعه رمحه حتى لقيا كليباً فى حماه فقال له جساس « يا ابن الماجدة عمدت إلى ناقة جارتى فعقرتها » قال كليب « أتراك مانعى أن أذب عن حماى ؟ » ولم يجبه جساس إلا بطعنة قصم بها صلبه ، وثنى عمرو بطعنة من خلفه قطعت بطنه . ووقع كليب وهو يفحص برجله وقال لجساس « أغثنى بشربة ماء » قال « تجاوزت شُبَيْثاً والأَحص » [2]

قال الراوى : وكانت الحرب بين بكر وتغلب ، وسميت حرب البسوس ، وقيل فى ناقتها « أشأم من سراب » ولبثت الحرب أربعين عاماً . وسأقص عليك من أنبائها عجبا ما؟

أخرجها : اليوزباشى أحمد الطاهر

(١) التأريج الأغراء وسمى أبو فيد المؤرج لتأريجه هذه الحرب

(١) رثأ اللبن حلبه على حامض فخثر . وفى المثل أن الرثيثة تفثأ الغضب أى تسكنه

(٢) موضعا ماء بتهامة